محتاجة إليه كحاجة الجسم إلى الغذاء والماء والروح . والانسان بلا دين ولا إيمان يصير بلا ضمير ولا خلق ولا رحمة ولا إنسانية . ولا أمان ولا ذمة ولا عهد لمن لا إيمان له ومن لا يعرف الله ولا يتقيه لا يعرف الحق والعدل .

* * *

## ما تغير من الحياة الإنسانية عبر الزمن
## وما لم يتغـــير

الطعام والشراب حاجة أساسية لحياة الانسان ماضيا وحاضرا ومستقبلا ، وما تغير منهما على مر السنين والعصور هو أدواتهما وألوانهما وأشكالهما وأصنافهما. فالأدوات والطرق والوسائل التى تعد بها أصناف الطعام والشراب والأوعية والأوانى التى توضع فيها تطورت وتحسنت وتعددت وأصناف الطعام والشراب وألوانهما ارتقت وتنوعت . فنار الحطب والخشب مثلا اختفت وحل محلها نار البترول والغاز والكهرباء ، وشرارة القدح والزناد انسحبت تاركة مكانها شرارة الكبريت والقداحة . وهكذا تطوى سنة التطور والارتقاء وسيلة عتيقة وأداة قديمة وتستبدل بها ما هو أرقى وأفضل من الوسائل والأدوات .

أما الطعام والشراب كحاجة جوهرية للحياة البشرية فلا تغيير فيها ولا تبديل ولا غنى عنها ولا استغناء . والملبس والمسكن من مطالب الحياة الإنسانية الأساسية فى جميع الأوقات والعصور . وما تغير فى الملبس والمسكن على توالى السنين والقرون هو الشكل والنوع والآلة والطريقة اللتان يصنعان بهما . أما الملبس والمسكن كحاجة ومطلب فلاغنى عنها فى كل زمان ومكان . فالإنسان الأول اتخذ ملبسه من ورق النبات وجلد الحيوان ثم أخذ الإنسان عبر السنين والقرون يتدرج فى تطويره وترقيته حتى توصل إلى صنعه من القطن والكتان والحرير والصوف وجلد الحيوان ومواد أخرى كالنايلون والبلاستيك والمطاط كما تطورت وارتقت الآلات والطرق التى تصنع بها الملابس على اختلاف أنواعها وألوانها وأشكالها .

واتخذ الإنسان فى بدء حياته الكهف مسكنا له ثم سكن الخيمة والكوخ ثم صار يسكن فى البيت الأنيق والقصر المنيف والعمارة الشاهقة الضخمة المبنية من الحجر والأسمنت وتطورت وتقدمت أيضاً أدوات البناء وطرقه وخططه .

والسفر والانتقال من مكان إلى مكان حاجة إنسانية قديمة لا يستغنى عنها الإنسان فى كل زمان ومكان وما تغير وتبدل فى دنيا

السفر والانتقال هو وسائله وأدواته وطرقه فالانسان فى الماضى كانت وسائل سفره وانتقاله الدواب كالجمال والخيول والحمير والبغال والأفيال والعربات التى تجرها الدواب . وفى البحر سافر وانتقل بقوارب التجديف والسفن الشراعية البطيئة ثم انسحبت هذه الوسائل والأدوات من ميدان السفر والمواصلات لتحل محلها وسائل وأدوات عصرية حديثة . كالسيارة والطائرة والباخرة . وواضح أن وسائل السفر والمواصلات الحديثة تمتـــاز على القديمة بالسرعة الفائقة الخيالية فهى تقطع المسافات الطويلة فى وقت قليل وجعلت هذا العالم الواسع المترامى الأطراف عالمـــاً صغيراً متقارباً متشابكا لا حواجز ولا سدود بين أجزائه . وما ترتب على ظهور وسائل السفر والمواصلات الحديثة من اتصـــال سهل سريع وتقارب شديد وتشابك فى المصالح والعلاقات أدى إلى سهولة وسرعة التعارف والتفاهم والتبـادل والتعاون بين الناس أفراداً وشعوباً فى شتى أقطارهم وبلدانهم وإلى نشر نور الوعى والثقافة .

والحرب ظاهرة قديمة لدى الجماعات والأفراد وسببها اختلاف فى الرغبات والنزعات وتصادم فى المصالح والأهداف كما أن من أسباب نشوبها الطمع وحب السيطرة والغزو والاستعمار ونزعة

الظلم والعدوان . والحرب طريق سليم وسنة صحيحة إذا كانت فى سبيل استرجاع حق مغتصب أو تحرير وطن محتل أو ردع ظالم معتد . وستبقى الحرب حاجة ملحة وطريقا متبعا ما دام هناك ظلم وعدوان واغتصاب وطمع وجشع .

وما تطور فى الحرب وتغير على مر السنين والعصور هو أساليبها وطرقها وخططها وأسلحتها وآلاتها لتطور الحياة البشرية . ففى الماضى البعيد كان سلاح الحرب الرئيسى السيف والرمح . وفى الوقت الحاضر صار سلاح الحرب المدفع والدبابة والطيارة والصاروخ والقنبلة الذرية والهيدروجينية وغير ذلك . ولكل زمان فنه الحربى وأسلحته .

وظهور المرض والداء أدى إلى ظهور الدواء فلولا الداء ما كان الدواء . والمرض قديم قدم الحياة البشرية . ولا اختلاف فى وجود المرض والداء على اختلاف العصور ولكن الاختلاف فى الدواء وطرق العلاج . فعلم الطب فى العصور الوسطى مثلا كان أرقى منه فى العصور التى سبقتها وعلم الطب اليوم أرقى من علم الطب فى العصور الوسطى . وعلم الطب والدواء وطرق العلاج وأدواته ستكون فى المستقبل أرقى وأفضل مما هى عليه اليوم . وذلك يعنى أن ما تغير وتطور فى شتى العصور هو الدواء وطرق العلاج وآلات

الطب وأجهزته ولم يتغير الداء والمرض فى أى زمان ومكان وسيبقى المرض ما بقيت الحياة البشرية فهو ملازم للحياة .

وفن القراءة والكتابة فن قديم وليس مستحدثاً وهو اليوم أرقى أسلوباً وأيسر منالا وأرحب مجالا وأكثر انتشاراً وازدهاراً منه فى أى عصر مضى . وفى الماضى البعيد كانت الكتب والمؤلفات والرسائل تكتب على العظام والحجارة وجلود الحيوانات وورق النبات .

أما اليوم وفى الماضى القريب فقد اختفت هذه الأشياء والأدوات وحل محلها الورق الأبيض المصقول كما أن أدوات الكتابة قد تطورت وارتقت . وآلة الطباعة عرفها الإنسان منذ القرن السادس عشر وقد كانت الكتب والمؤلفات قبل اختراع آلة الطباعة تكتب وتخط باليد فلذلك كان انتشار الكتب قليلا ، وقد طور الانسان آلة الطباعة حتى بلغت ما بلغته اليوم من دقة صنع وسرعة عمل وطباعة .

وعلم الزراعة قديم جداً وقد تطور وتغير عبر القرون والعصور وارتقى واتسع نطاقه وتعددت آلاته وأدواته واليوم نرى آلات وطرقا لزراعة الأرض وحرثها وحصاد منتجاتها لم تكن موجودة من قبل وهى آلات وطرق تيسر العمل وتختصر

الوقت وتغنى عن الكثير من الأيدى العاملة . أما الزراعة كعلم وحاجة إنسانية فستبقى ما بقيت الحياة البشرية .

والصناعة قديمة لأن الحاجة إليها قديمة وقد تطورت بتطور الحياة الإنسانية وما تطور وتغير هو آلات الصناعة وأدواتها وطرقها ومصنوعاتها وقد تطور علم الصناعة وتقدم وتشعب وبارت صناعات وظهرت صناعات جديدة لم تكن موجودة من قبل .

وعلم الفلك والأرصاد الجوية علم قديم أيضاً وقد تطور بتطور الحياة البشرية واتسع أفقه وما تطور ويتطور منه عبر الزمن هو آلاته وأدواته وطرقه . ويمتاز العصر الحديث عن العصور القديمة بوسائل اتصال وأجهزة إعلام سريعة كالمذياع والتليفزيون والقمر الصناعى والبرق والبريد والهاتف جعلت الاتصال والاعلام بين الناس فى أنحاء العالم أمراً سهلا وسريعاً وجعلت ما يقع فى ناحية من العالم من أخبار وأحداث ومشاكل يتردد صداه بسرعة البرق الخاطف فى الأنحاء الأخرى . أما فى الماضى فقد كان الاتصال صعباً وبطيئاً جداً وكان يستغرق أياماً وشهوراً فالاتصال الاعلامى بين الناس فى أنحاء العالم ظاهرة قديمة . وما تغير فى هذا المجال على مر العصور هو وسائل الاتصال وأجهزة الاعلام وستبقى حاجة الناس إلى الاعلام قائمة ما بقى الناس .

والفن من أدب ورسم وموسيقى ظاهرة قديمة وقد تطور الفن عبر العصور بتطور الحياة الإنسانية التى هى منبعه وشجرة حياته وقد أصاب التطور أشكال الفن وأساليبه وموضوعاته ، أما روحه وجوهره كحاجة إنسانية فلم يصبها تطور ولا تغيير . وسيتناول التطور دائماً الشكل والمظهر وان يصيب الروح والجوهر .

وحاجة الإنسان إلى الأخلاق والآداب ليست حديثة فهى أساس التقدم العلمى والحضارى ولا أدل على ذلك من أن المجتمعات البشرية تتقدم وتصلح أحوالها بصلاح أخلاق أفرادها وتتخلف وتفسد عندما تفسد أخلاقها وتضمحل آدابها وفضائلها .

والأخلاق والآداب من أركان الحياة الطيبة السعيدة ومن عناصر السلم والأمن . وهى السلك الذى ينتظم حبات العقد الاجتماعى . وبها تنتظم علاقات الناس بعضهم ببعض وتستقيم أمور الناس وتصلح أحوالهم . وفى ذلك قال أحمد شوقى :

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه
فقوم النفس بالأخلاق تستقم

وقال :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيت
فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

وقال :

وليس بعامر بنيان قوم إذا أخلاقهم كانت خرابا

وفى الحقيقة والواقع أن النفس الإنسانية تحتاج إلى غذاء وشراب ولباس وزينة كما أن الجسم يحتاج إلى هذه الأشياء . وغذاء النفس وشرابها ولباسها وزينتها الأخلاق والآداب أما لباس الجسم وزينته فالملبس والذهب والجواهر . وعلى رأس الأخلاق التى نعنى الشجاعة والأمانة والصدق والشرف والرحمة والتواضع والحلم والتسامح والتعاون والاتحاد والتضحية والإيثار والنشاط والعمل وحب الوطن . وغنى عن البيان أن الأخلاق الكريمة تنمو وتزدهر تحت ضوء شمس العلم والمعرفة والثقافة ولا تنمو فى ظلام الجهل . والخلق الكريم والسلوك السليم من ثمار العقل المستنير . وذلك يعنى أن الناس فى كل زمان ومكان فى حاجة ماسة إلى الأخلاق والفضائل ، ولم يطرأ على جوهر الأخلاق وروحها تغيير وتبديل على توالى السنين والقرون .

وأهم مصـــدر وأعذب منبع للأخلاق والآداب والفضائل الأديان السماوية التى هى فى حقيقتها وجوهرها أخلاق كريمة وآداب عالية ومثل عليا . فقد أنزل الله سبحانه وتعالى الأديان عذبة نقية من السماء كما ينزل المطر عذباً صافياً من السحاب وحملها

للرسل والأنبياء لهداية الناس إلى الله تعالى والإيمان به. وإذا ما اهتدوا إلى الله وآمنوا به وأطاعوه وتحلوا بالأخلاق والآداب التى يأمر بها ويحث عليها وإذا تحلوا بالأخلاق والآداب الإلهية السماوية انصلحت أحوالهم واستقامت أمورهم وطابت حياتهم. وواضح أن الحياة بلا أخلاق وآداب ومثل عليا جحيم لا يطاق وحياة الغاب التى تسودها الوحشية والهمجية. وإذا ما تجرد المرء من الأخلاق والفضائل صار وحشاً ضارياً وحيواناً سافلا منحطا. وقد أثبت الواقع أن الجرائم والشرور التى تقع من خواء النفوس والقلوب من مكارم الأخلاق أكثر من الجرائم والشرور التى تقع من خواء البطون من الطعام والشراب.

وقد أنزل الله سبحانه وتعالى الأديان السماوية على الأرض وحملها للأنبياء والرسل لمصلحة البشر ومنفعتهم لا لمصلحته ومنفعته هو فالله جل وعلا ليس فقيراً إلى الناس بل الناس هم الفقراء إليه فهو الغنى الحميد والعزيز الحكيم وهم الضعفاء الجهلاء، والقوى العليم الحكيم لايحتاج إلى الضعيف المجهول فالضعيف الجاهل هو الذى يحتاج إلى القوى العليم الحكيم كما أن الأعمى يمد يده إلى المبصر ولا يمد المبصر يده إلى الأعمى.

وذلك يعنى أن الموضوع الرئيسى للأديان السماوية ومهمتها الحقة تعليم الناس الأخلاق السامية والآداب العالية والجانب

الروحى من الحياة وتهذيب الجانب المادى ، ويدلنا على ذلك قوله تعالى فى القرآن الكريم «وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر» وقوله جل شأنه فى الصوم : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » «فلعلكم تتقون » هى حكمة الصوم .

وقد بين رسول الله محمد ( صلى الله عليه وسلم ) حكمة الصلاة بقوله : « من لم تنهه صلاته فلا صلاة له » ، ولم يفته عليه الصلاة والسلام أن يبين لنا أيضا حكمة الصيام بقوله : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

أو ليس كل ذلك أخلاقا وآدابا ؟

والأخلاق والآداب هى القانون الطبيعى الذى يتحقق به النظام والأمن والسلام والعدل والتعاون والاتحاد والتراحم والتعاطف والسعادة والوقاية من الوقوع فى الشرور والجرائم .

واتباع طريق القانون الطبيعى يؤدى إلى اتباع طريق القانون الوضعى الصناعى فلا احترام للقانون ولا تمسك به ما لم يكن هناك احترام للأخلاق وتمسك بها ، فالتمسك بالقوانين مستمد من التمسك بالأخلاق والآداب . والعدالة تتحقق بالأخلاق الكريمة والضمائر النبيلة قبل أن تتحقق بالقوانين والأنظمة والقرارات والدساتير

وليس أدل على ذلك من أن القوانين العادلة لا تصدر إلا عن أصحاب العقول المستنيرة والضمائر الحية وأنه يمكن أن يتلاعب بالقوانين العادلة والقرارات المنصفة وفق الهوى والغرض ما لم يقم على تطبيقها وتنفيذها أناس ومسئولون يتمتعون بعقول نيرة وضمائر حية وأخلاق كريمة .

وقد علمنا التاريخ قديمه وحديثه أن التقدم الخلقي والروحي أساس التقدم العلمي والمادي وأن الأمم والدول تضعف وتنحل عندما تنحل أخلاق أفرادها وتفسد آدابهم. وعلمنا أيضاً أنه لا سلام ولا إخاء ولا مساواة ولا عدالة اجتماعية إلا بالأخلاق الكريمة والضمائر النبيلة والعقول المستنيرة . وهذا هو السر والحكمة فى رسالة الأديان السماوية التى تقوم على تعليم الناس مكارم الأخلاق والآداب وبعث الضمائر الحية الشريفة فى النفوس البشرية .

ومما علمنا التاريخ أن الحضارة الطيبة الثمار الوارفة الظلال هى الحضارة التى تنبت وتنمو بالروح والمادة كما تنبت الشجرة بالتراب والماء وهى الحضارة التى تصنع من الروح والمادة كما يقام البناء من الطين والحجارة ، وأن حضارة تقام من مادة بلا روح كبناء يبنى من حجارة بلا طين وأن حضارة تشاد من الروح وحدها كبناء يقام من الطين وحده ، فلا حضارة طيبة بالمادة وحدها ولا بالروح

وحدها فالحضارة الحقة الخالدة هى الحضارة التى تقام من القيم المادية والروحية معاً .

والحضارة روح ومادة روحها الخلق ومادتها العلم .

والحضارة كائن حى روحه الخلق وجسمه العلم وطعامه العلم وشرابه الخلق .

والعلم مصدره العقل والخلق مصدره الدين السماوى .

والعلم هو العقل والدين هو الخلق والضمير .

والعلم هو الجانب المادى من الحياة والدين هو الجانب الروحى منها .

وكما أن المرء يتقدم ولا ينجح فى الحياة ما لم يكن متمتعاً بعقل مستنير وخلق كريم كذلك الأمة وهى صورة مكبرة للفرد لا تقدم ولا ترتقى ما لم يزنها عقل مستنير وخلق كريم .

وبمقدار ما يكون الفرد متمسكا بالأخلاق والمثل العليا يسمو ويعلو ويبتعد عن الشرور والرذائل والجرائم وعلى قدر تمسك المجتمع بالأخلاق والآداب يكون أفراده متعاونين متحدين ومتراحمين متعاطفين فى جميع الظروف والأحوال ؛ فالاقتراب من الشر والظلم والرذيلة سبيل الابتعاد عن القيم الخلقية والروحية والافتقار إلى العلم والوعى والمعرفة .

ومن شأن الدين أن يطهر قلب الإنسان من نوازع الشر والفساد وأن يوجهه إلى طريق الخير والحق والجمال، ويهذب النفس ويسمو بها ويشفيها من عللها وأمراضها وينشر المحبة والعدالة والسلام ويحث الانسان على استخدام العلم واختراعاته الكثيرة التى تصلح للنفع والضرر كالطاقة الذرية والنار والسلاح فى البناء والتعمير والخير والحق لا فى الهدم والتخريب والشر والباطل.

وفى رأيى أن البشر اليوم فى عصر القنابل الذرية والهيدروجينية والصواريخ فى هذا العصر الذى يؤرق فيه الناس شبح الحرب الذرية يحتاجون إلى التمسك بالأديان السماوية والإيمان بالله أكثر من حاجتهم إليها فى أى عصر مضى ولا شىء يؤثر فى سلوك الإنسان ويجعله سليما كالإيمان بالله. ولا أعدو الحقيقة إذا قلت إن المانع من قيام حرب عالمية ثالثة هو الخوف من عواقب هذه الحرب المدمرة القاضية التى لا تبقى ولا تذر ولن يكون فيها منتصر ومنهزم وليس الرغبة الصادقة فى السلم. والسلم الحق الدائم ما قام على الحب والرغبة فيه وعلى الحق والعدل لا ما قام على الخوف من الحرب والسلم الذى يقوم على الخوف من الحرب سلم مؤقت معرض لأن تعصف به عواصف الحرب.

ومما يجعل قيام حرب عالمية أمراً ممكناً غير مستحيل هو انتشار الظلم والعدوان والجشع والطمع فى أرجاء العالم وهذه هى الأسباب

والدوافع إلى الحروب والشرور والجرائم . وغنى عن البيان أن الأديان السماوية تدعو إلى سيادة الحق والعدل وتنهى عن الظلم والباطل والعدوان والطمع والجشع . والمؤمن بالله حقاً يتبع دائماً طريق العدل والحق ولا يسلك سبيل الظلم والعدوان ولا يطمع فيما ليس له . ولا أمن ولا سلام فى أى زمان ومكان إلا بالحق والعدل والبعد عن الجشع والاستغلال .

ومايجدر ذكره هنا أن صعود الإنسان إلى القمر والكواكب الأخرى لا يناقض الإيمان بالله ؛ فالإنسان يبدع ويصنع ويخترع ويكتشف بهدى ووحى من العقل الذى وهبه إياه الله سبحانه وتعالى وميزه به عن سائر المخلوقات والكائنات . وهو يصول ويجول فى نطاق الكون الذى خلقه الله وفى هذا الشأن قال سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم : «اقرأ وربك الأكرم الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم» .

فالله عز وجل لا يقيم فى القمر ولا فى كوكب آخر . ولما نزل الإنسان على سطح القمر لم يره ولم يجده فيه . وهناك أشياء ماتزال أسراراً مبهمة مغلقة إذا عرفها الإنسان وأدرك كنهها صارت الأديان السماوية من آثار الماضى ووجب وضعها عندئذ فى المتاحف ودور الآثار وصار وجود الله أسطورة من أساطير الأولين

ألا وهى معرفة سر الروح وبعث روح وحياة فى مصنوعات الإنسان ومنع الموت وإحياء الموتى .

فالله جل شأنه قال لنا فى كتبه السماوية إن مسألة الروح والموت والحياة من أمر الله وحده ولا يستطيع الإنسان مهما أوتى من العلم والفهم والذكاء أن يعرف شيئاً عنها فقد قال الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم عن الروح : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » . وقال أيضاً جل شأنه عن الموت : « كل نفس ذائقه الموت » وقال تبارك وتعالى : « كل من عليها فان » .

ولنا أن نتساءل : إذا كان الإنسان قد اخترع ما اخترع وصنع ما صنع فمن هو الذى خلق الإنسان الذى اخترع هذه المخترعات وصنع هذه المصنوعات أليس هو الله سبحانه وتعالى .

وذلك يعنى أنه لا تناقض ولا اختلاف بين العلم والدين وأن العلم لا يتقدم على حساب الدين . والدين ليس حجر عثرة فى طريق التطور والتقدم فالدين الصحيح يحث دائماً وأبداً على العلم النافع وعلى كل ما فيه خير ونفع للبشر فى كل زمان ومكان . والعلم والدين فى خدمة الحياة الانسانية ويكمل كل منها الآخر فى توفير الحياة الطيبة السعيدة .

والحياة البشرية تقوم على الاثنين معاً ، ولا يمكن أن تقوم على واحد منهما فقط فالدين لنشر مكارم الأخلاق والآداب وتهذيب النفس وضبطها وتغذيتها وتزيينها ، والسمو بالروح وبعث الضمير وتوجيه العلم وطاعاته وقواه إلى طريق الخير والحق والسلم لا إلى طريق الشر والباطل والحرب . والعلم لبناء الجانب المادى من الحياة وخدمة جسم الانسان وتوفير مايلزم له من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وغير ذلك .

يفهم مما تقدم أن ما تطور وتغير من الحياة البشرية عبر السنين والقرون هو شكلها ومظهرها ووسائلها وأساليبها أما الروح والجوهر والغاية والهدف فلم يطرأ عليها تطور ولا تغيير .

## هل الدين رجعى لا يماشى الزمن

### ويمنع التطور والتقدم

يتهم بعض الناس من مسلمين وغير مسلمين الدين بالرجعية والجمود والقصور عن مماشاة ركب الحياة المتطور الصاعد . ومن ذلك قول كارل ماركس فيلسوف الشيوعية إن الدين أفيون الشعوب ، أى أن الدين يخدر الشعوب كالمخدرات ويمنعها من العمل والانتاج والتقدم . وفى رأيى أن هذا الاتهام باطل لمجافاته